محاضرات في البلاغة العربية

عوامل تطور البلاغة وأسباب ازدهارها

-التعقيد :

أشار بعض البلاغيين قديما إلى التعقيد والغموض اللذان اكتنفا علم البلاغة بعد ظهور عبد القاهر الجرجاني ومن دون شك أن لهذا التعقيد أسبابا عدة لا تقل أهمية عنه كان لها أثر بين في قضية التعقيد الذي لحق بالبلاغة مما أدى بالعلماء إلى السعي بغرض توضيحه وتسييره لطالبيه منها نشأة البلاغة من غير العرب وارتباط البلاغة بقضية إعجاز القران التي كان العرب الأوائل في زمن التنزيل يدركونها بفطرتهم اللغوية أصبحت فيما بعد في العصور المتأخرة قضية فكرية تحتاج إلى التعليل العلمي بعد فقدان العرب لتلك الفطرة وغدت حاجة المسلمين إلى إدراك هذا الإعجاز بالوسائل العلمية متاحة في عصرهم وفي بيئة المتكلمين كثرت أساليب الجدال بشأن الإعجاز ولا سيما بين المعتزلة وغيرهم من أصحاب المذاهب الكلامية وأصبحت البلاغة وسيلة يعللون بها عن أفكارهم ونهجهم إضافة إلى تراجع الأدب وعزلة العربية في العصور المتأخرة ولا سيما بعد القرن الخامس الهجري إضافة إلى كون أغلب البلاغيين الأعلام من غير العرب؛ حيث تنبه ابن خلدون لذلك فقال :<< إنهم أهل الحضارة مقارنة بالعرب ولأنهم احتاجوا بعد فساد اللسان إلى وضع القوانين النحوية وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباطات والاستخراج والتنظير والقياس واحتاجت إلى علوم أخرى وهي الوسائل لها من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس >> هذا ما جعل التعقيد سمة تكتنف البلاغة فمنعت وضوحها فظهرت معقدة فيها نوعا من التطويل والحشو وهذا ما أقره القزويني في

كتابه التلخيص عن السكاكي في مفتاحه؛ حيث قال ورأى ابن الزملكاني أن علم البيان من أجلّ العلوم وأفضلها قدرا ولكنه لغموضه ودقة رموزه استولت عليه يد النسيان وألحقه القصور بخبر كان وليس فيه من المصنفات إلا القليل وقال العلوي في الطراز:<< إن مباحث هذا العلم (البلاغة) في غاية الدقة وأسراره في نهاية الغموض فهو أحوج العلوم إلى الإيضاح والبيان>>؛ فهذه إشارات واضحة لبلاغيين مشهورين إلى قضية الغموض والتعقيد التي تسربت إلى مباحث البلاغة وملاحظة هذا التعقيد في مسائل البلاغة جعلت هؤلاء ـ مثلما ذكرنا سابقا ـ يسجلونه في مصنفاتهم وقد حرك هذا الأمر هممهم وجعلها متوجهة إلى التصنيف والتأليف في هذا العلم بغرض إيضاحه وتيسيره لطالبيه"[53].

- الشعر:

يعتبر موضوع الشعر من بين أهم الموضوعات التي تم التعرض لها عبر امتداد التاريخ ؛<< فهو صياغة جمالية للإيقاع الفني الخفي الذي يحكم تجربتنا الإنسانية الشاملة ، وهو بذلك ممارسة للرؤية في أعماقها ،ابتغاء استحضار الغائب من خلال اللغة>>[54]، فعالمه عالم جميل يموج بالحركة والألوان،ولغته لا تعترف بالحدود والمنطق، مثلما ذكر أدونيس في كتـابه "مقدمة الشعر العربي"؛ حيث قال :<< أنّ الشعر يأتينا مفاجئا، غريبا عدو المنطق والحكمة والعقل ندخل معه إلى حرم الأسرار ويتحد بالأسطوري العجيب السحري >>[55] والشعر لا ينقل الدلالات والمعاني بصورة رتيبة كما هي في الواقع ،إنما يحبذ إلى اكتشاف كنه الأشياء بالشعور والحدس لا بالعقل والفكر؛<< لأن الفكر لا يجوز أن يدخل العالم الشعري إلا مقتنعا غير سافر

متلفعا بالمشاعر و التصورات والظلال ذائبا في وهج الحس والانفعال، ليس له أن يلج هذا العالم ساكنا باردا مجردا >>[56].

والشعر من أحسن فنون الأدب عند العرب؛ فقد كان يعدّ أحسن ممثل لأحاسيسهم ومشاعرهم وقبائلهم وأخبارهم؛ لذلك عُدّ ديوان العرب،يعتمدون عليه ويحتكمون بحكمه منذ القدم ؛فقد ظهر كملكة عندهم منذ الصغر كما وقع لأغلب الشعراء الذين كان لهم الدور الكبير في الإبداع والتأثير على البلاغة بأساليبهم منهم كعب بن زهير الذي كان والده يشفق عليه من قول الشعر صبيا فقلد كان يمنعه من ذلك لأنه لم يكن متأكدا من قدرته عليه؛ فلما رآه يجيد الوصف ويدقق التشبيه سمح له بتعاطيه.

ويروي الجاحظ أن عبد الرحمن بن حسان الأنصاري قال وهو صغير :

الله يعلم إني كنت مشتغلا في دار حسان اصطاد اليعاسيبا

وقال لأبيه وهو صبي يقول:لسعني طائر؟قال :"فصفه لي يا بني قال: كأنه ثوب حبرة قال حسان : قال ابني الشعر ورب الكعبة"

فهنا يظهر أنّ العرب تجاوزت مجرد الذوق والانفعال إلى ربط البراعة في نظم الشعر[57].

ولقد تواصل الاهتمام بالشعر في العصور المتأخرة وكانت العلوم الإسلامية الناشئة تستغله من الوجهة التي تناسب موضوع بحثها ولعل من أشهر من اهتم به في الفترة التي تهمنا طبقات اللغويين والنحاة؛ فقد شدو الرحال إلى مختلف القبائل يروون عنها الشاهد والمثل ويقيدون ذلك في نطاق ما يسمى في تاريخ العلوم اللغوية بحركة الجمع ؛ولقد أدى اهتمام هذه الطائفة بالشعر في وقت مبكر إلى جملة من النتائج سيكون لها ابعد الأثر في تاريخ البلاغة والنقد عند العرب

منها إقرار جملة من المقاييس التي يقوم عليها هذا العلم ولم يقف الأمر عند هذا الحد فلقد أسهموا في تشكيل الذوق الأدبي عند العرب بصفة عامة[58] .

والشاعر باستطاعته أن:<< يحول الأفكار إلى تجارب شعرية >>[59]؛فهو لا يعبر بالكلمة المجردة مثل العالم والمفكر؛وإنما يجسد تجربته الشعرية بواسطة الكلمة والإيقاع والرمز.

ويبين أحد النّقاد مدى الحس النّقدي المرهف الذي وصل إليه "عبد القاهر الجرجاني" على المستويين التنظيري والعلمي،فقال:<< لقد أدرك هذا البلاغي الفذّ أنّ الشعرية،أو البلاغة تتحقق بفضل التّصوير الذي يعترض المعنى،هذا التّصوير أو "وجوه الدلالة على الغرض "هو مجموع الأدوات التصويرية البيانية من تشبيه وتمثيل واستعارة وكناية،وهذا ما يختصره الجرجاني في عبارته التي يتحدث فيها عن القدماء وفهمهم للصورة:<< إنّهم لا يعنون بحسن العبارة مجرد اللفظ،ولكن صورة وصفة وخصوصية تحدث في المعنى>>[60].

-القرآن الكريم :

يحتل القرآن الكريم مرتبة عالية في نفوس الشعراء والأدباء؛ لأنّه غني بآيات محكمة وأسلوب رفيع معجز، وبلاغة مشرقة، إضافة إلى احتوائه على قيم فكرية وتشريعية؛ فهو دستور ومنهاج عظيم للأمة.

ولقد احتوت هذه الرسالة السماوية من الخصائص ما ميزها على كل ما سبقها وهيأها لتلعب دورا حضاريا لم تقم بمثله الكتب المنزلة الأخرى، ومن أكبر خصائصها أنها اتخذت من شكلها اللغوي حجة لنبوة الرسول الذي اصطفاه الخالق ليبلغ عنه ، فكانت معجزته من خصائص اللغة في الرسالة وجودتها زيادة عما يحتويه من أخبار عن الغيب وقصص عن الأمم

السالفة ترد على لسان رجل أمي لا يعرف القراءة والكتابة ومن تحديه من نزل عليهم وهم ما هم قدرة بيان وطلاقة لسان أن يأتوا بشيء مثله فأذعنوا ولم يعارضوا ولم تستطع ردود الفعل الأولى الرافضة لهذه الرسالة بكثير من العنف إلا أن تقر بخصائصه الأسلوبية المتميزة وتسلم بها وإن ربطتها مسايرة لتيار الرفض ذلك بشعائر تعبيرية تبرأ منها القرآن بل هاجمها .

ولقد غدا القرآن القطب الذي تدور حوله مختلف المجهودات الفكرية والعقائدية للمسلمين وأهم جانب فيه ساعد على ظهور التفكير البلاغي هو الجانب المتصل بقضية إعجازه،يقول الجاحظ في نص هام فيه إلمام بمختلف العوامل التي أدت إلى الاهتمام بعلامات النبوة :" إنّ السلف الذين جمعوا القرآن في المصاحف بعد أن كان متفرقا في الصدور والذين جمعوا الناس على قراءة زيد بعد أن كان غيرها مطلقا غير محظور والذين حصنوه ومنعوه الزيادة والنقصان لو كانوا جمعوا علامات النبي وبرهاناته ودلائله وآياته وصنوف بدائعه وأنواع عجائبه في مقامه وظعنه وعند دعائه واحتجاجه في الجمع العظيم وبحضرة العدد الكبير الذي لا يستطيع الشك في خبرهم إلا الغبي الجاهل والعدو المائل وكما استطاع اليوم أن يدفع كونها وصحة مجيئها لا زنديق جاحد ولا دهري معاند ولا متطرف ماجن ولا ضعيف مخدوع ولا حدث مغرور ولكان مشهورا في عوامنا كشهرته في خواصنا ولكان استبصار جميعا عياننا في حقهم كاستبصارهم في باطل نصاراهم ومجوسهم ولما وجد الملحد موضع طمع في غبي يستميله وفي حدث يموه له ولولا كثرة ضعفائنا مع كثرة الدخلاء فينا الذين نطقوا بألسنتنا واستعانوا بعقولنا على أغبيائنا لما تكلفنا كشف الظاهر و إظهار البارز و الاحتجاج للواضح"

وستستفيد البلاغة العربية من ذلك على مستويين رئيسيين هما: ما تعلق بقضية الإعجاز وتأويله بعض المعتزلة لذلك وما نشأ عنه من ردود فعل تواصلت إلى وقت متأخر جدا بل إلى العصر الحديث .

ما اضطر إليه المعتزلة من تأويل لكثير من الآيات التي يتنافى ظاهرها مع أصولهم العقائدية خاصة مبدأ التوحيد فحملوا هذه النصوص على المجاز وأصبح هذا المظهر اللغوي الموضوعي دعامة لمبادئهم مما جعلهم يهتمون به ويفيضون في شرحه[61].

- تقعيد اللغة:

يبدو من وجهة السنة عامة أن البحث البلاغي المنظم والنظر في الأساليب نظرا يرغب عن الانطباع ومجرد الانفعال ويروم كشف السر في جودتها وفضل بعضها على بعض لا يتأتى إلا بعد معرفة دقيقة بقواعد اللغة و الضوابط التي تتحكم في ما قد يقوم بين أقسامها من علاقات ووصف تلك الأقسام وصفا تتجلى به خصائصها .

-ولقد حظيت هذه الفكرة في الدراسات الأسلوبية اليوم بمكانة هامة ولعلها أصبحت من المسلمات المنهجية الضرورية ومقدمة كل دراسة غايتها من النص بعده الفني ومنطلقا ابستومولوجيا تتأسس عليه دراسة الجانب الإنشائي في الفعل اللغوي عامة.

والسبب في ذلك طبيعة العمل الأدبي وخصائص اللغة فيه، وما بين علمي النحو والبلاغة من اختلاف في الغاية.

فوظيفة النحو استخراج مبادئ اللغة ونظمها استنادا إلى الاستعمال المشترك أو ما يظن أنه استعمال مشترك وغايته القصوى حماية اللغة من الفساد والحرص على أن تواصل أداء وظيفتها

الأصلية:الإبلاغ ووسيلته في ذلك ضبط المعايير التي نفصل بها بين الخطأ والصواب ويطابق المتكلم باحترامها بينها وبين حاجته في التعبير المستقيم.

أما البلاغة فوظيفتها وصف الطرق الخاصة في استعمال اللغة وتصنيف الأساليب بحسب تمكنها في التعبير عن الغرض تعبيرا يتجاوز الإبلاغ إلى التأثير في المتكلم أو إقناعه بما نقول أو إشراكه في ما نحس به وغايتها مد المستعمل بما تعتبره أنجع طريقة في بلوغ المقاصد.

وقد انطلقوا في تقعيد اللغة في مسار معكوس يتمثل في اعتمادهم لتقنين اللغة المشتركة على المستوى الإنشائي منها أوضح في موقفهم من الشعر والقران فقد اعتبر النحاة هذين النصين مصدرا لغويا هاما وشهادة حاسمة.

ولقد نتج عن هذه المكانة التي حظي بها الشعر والقرآن عند اللغويين عدة نتائج لعل أهمها أن ما نعتبره قواعد اللغة قد تأسس في جانب كبير منه على الكلام وعلى كلام ذي خصائص بنيوية وفنية لا شك فيها مما أدى إلى امتزاج المبادئ الكلية المرتبطة بالاستعمال الفصيح بالخصائص النوعية للشعر والقران وهذا أمر واضح في مؤلفات النحاة .

ورغم أن غايتهم من دراسة اللغة لا تعدو مبدئيا استخراج قواعدها وضبط النواميس التي تتحكم في أوجه استعمالها والبحث عن بنية نظرية وهيكل عام تندرج ضمنها تلك المادة الضخمة تلك المادة الضخمة وتنسجم أقسامها على أسس تحقق تطابق مقولاتها مع مقولات العقل والمنطق [62]،بحكم ارتباط هذه المشاغل بغايات دينية كالاحتجاج للغة القرآن وبيان أنها النموذج الأسمى لهذه اللغة وبحكم كونهم مسلمين يعنيهم من القرآن ما يعني غيرهم من القضايا العقائدية التي أثيرت حول بنيته أعانوا على بلورة عدد من المسائل البلاغية وكانت مؤلفاتهم في

جانب منها صدى لما يدور في البيئة العربية الإسلامية من مناقشات حول القرآن ويبدوا هذا واضحا في المؤلفات التي وضعت بداية من القرن الرابع على وجه الخصوص، فشاركوا في مناقشة مسالة اللفظ والمعنى ونظروا في مختلف المقاييس التي تنظم العلاقة بينهما وعبروا عن رأيهم في أهمية كل واحد منهما وفضله على الآخر، كما خاضوا في مستويات الدلالة فبحثوا في فرق ما بين الحقيقة والمجاز وأفاضوا في ذلك واختلط عندهم في هذا المجال النظر إلى المسألة من بعد لغوي صرف بجانبها العقائدي الجدلي والمبادئ الكبرى ومن أكثرها تعلقا بالجزئيات والمبالغة في ذلك إلى حد السذاجة أحيانا عندما يتعلق الأمر بالجانب العقائدي والبحث عن الحجة[63].

-الحاجة إلى التعلم والتعليم:

رزت بتطور المجتمع العربي الإسلامي الحضاري والسياسي حاجات نوعية لم تكن في عهد تأسيس الدولة والقرب من سرة البادية موجودة أو لم يشعر الناس بضرورتها شانهم فيما بعد ومرد ذلك استقرار العرب بالمدن الكبرى بعيدا عن مهد لغتهم وشعرهم ومهبط قرانهم وفساد اللسان وشيوع اللحن ورقة الصلة بتلك الروح وقد كانت تحفزهم على تراثهم يحفظونه بالتلقي المباشر والتعلم التلقائي واتساع رقعة السلطان ورغبة الحكام في إرساء نفوذهم السياسي على مؤسسات تمكن من شد الأطراف إلى المركز ودخول أقوام من حضارات أخرى سعى أولوا الأمر احتوائهم وإدخالهم في صلب جهاز الدولة وتمكينهم من المناصب المرموقة أحيانا يضمنون يذلك ولاءهم ويضعفون من حدة انتماءاهم الحضارية والعقائدية الأولى وقد تضافرت هذه العوامل على خلق ملابسات حضارية وفكرية جديدة وصراعات مذهبية وتوترات في بنية المجتمع ساهمت بقسط وافر في إذكاء الجدل والاحتجاج حول قضايا كان بعضها متصلا

بمقومات الحضارة العربية الإسلامية من الوجهة اللغوية و البيانية وقد أدت هذه العوامل إلى ظهور فئات اجتماعية تقوم على صناعات لم تكن الحاجة إليها في السابق واضحة نذكر منها فئة المؤدبين أو المعلمين وموقف الناس منهم مشوب بكثير من الحذر والاستهزاء مما قد يكون ساعد على غمرها.

ويبدو رغم ذلك إن هذه الفئة لم تكن على اجتماع أهلها على صناعة واحدة متجانسة لا من حيث أصل من ينتمي إليها ولا في مادة تعليمها وغايته ولا حتى من حيث اهتمامها بمظاهر اللغة والأسلوب ويمكن تبعا لذلك أن نقسمها إلى ثلاث طوائف طائفة يرتبط ظهورها بالدولة الأموية كانت تقوم على تربية أولاد الخاصة وأولاد أولي الأمر المرشحين للخلافة تعلمهم الشعر العربي الأصيل وما يتطلبه فهمه من إحاطة بفصحات العرب وأخبارهم وأنسابهم وذكر أيامهم .

أما الطائفة الثانية فهي شديدة الصلة ببيئة المتكلمين والمعتزلة فهم يعتبرون تعلم البلاغة غاية في حد ذاته تمكنهم من أداة ناجعة يظهرون بها على خصومهم في المناظرات والمجادلات وكذا طائفة ثالثة تقوم على تأديب الكتاب الملحقين في مؤسسات الدولة بديوان الرسائل والكتابة[64].

انطلاقا مما سبق يظهر جليا أن البلاغة مرت بمراحل عديدة حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن ؛وهذا ما توضح لنا من خلال سرد التفاصيل عنها فكان لقول الشعر دورا كبيرا في انتشار روح المفاضلة والاهتمام بالأسلوب إضافة إلى القرآن ومدى ارتباطهم به ومحاولة الإتيان بمثله ما سمح لهم بإتقان العمل حتى يضاهوا به القرآن فظهر العديد من المؤلفين والكتاب

واللغويين والنحاة تميزوا في مجال البلاغة كأبوعبيدة والجاحظ وابن قتيبة وابن المعتز و العسكري والباقلاني والزمخشري وغيرهم كثير ممن أبدعوا وساهموا في مجال اللغة وقد دعتهم أسبابا عدة لانتهاج البلاغة منها اهتمامهم بالشعر وتنقيحه حتى يعتلي به المراتب الأولى وظهور القرآن ومدى تأثرهم ببلاغته واختلاط العرب بغيرهم وظهور العجم والاعوجاج في الألسنة وتغير اللغات أو دخول لهجات عنها كل هذه العوامل أدت بالبلاغيين إلى الاهتمام بها والتركيز على أبوابها وإعلائها إلى مراتب العلوم فأصبحت علما قائما بذاته تضم ثلاثة أنواع وهي علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع وسوف نحاول التطرق إلى كل نوع على حدى .